

مكتبة الكتب المسيحية

الموقع القديم

http://coptic-books.blogspot.com

الموقع الجديد :

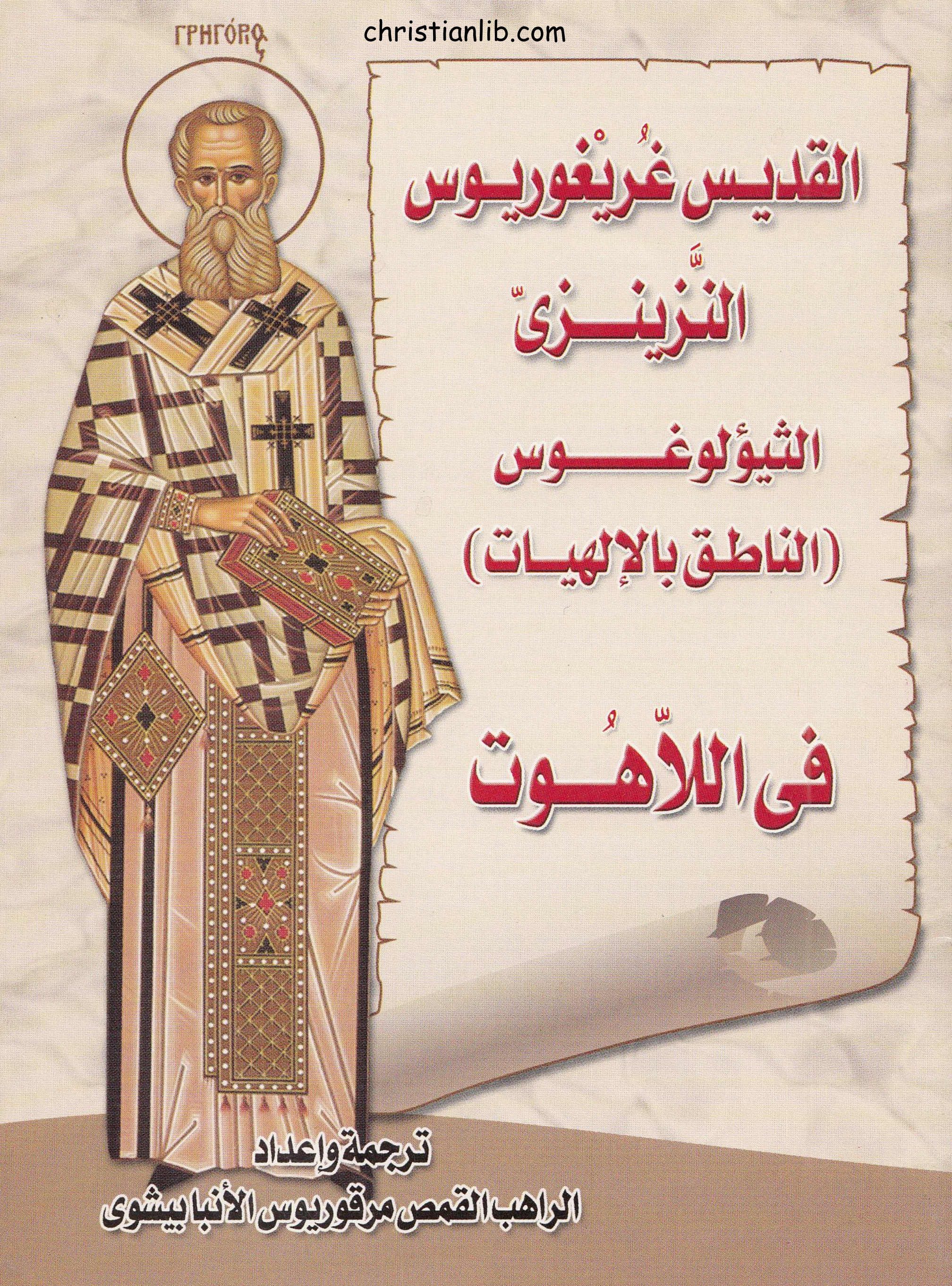
http://www.christianlib.com

انضم لجروب ماذا تقرأ هذه الأيام (النسخة المسيحية) ؟

https://www.facebook.com/groups/530822643657367

انضم لصفحة : مكتبة الكتب المسيحية :

https://www.facebook.com/copticbooks4u/


christianlib.com
القديس غريغوريوس
النزينزى
الثيؤلوغوس
(الناطق بالإلهيات)
فى اللاهوت
ترجمة وإعداد
الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى
coptic-books.blogspot.com

القديس غُريْغوريوس النَّزينزيّ

الثيؤلوغوس (الناطق بالإلهيات)

فى اللاّهُـــــوت

ترجمـة وإعـداد

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيـشوى

عن كتاب

ST GREGORY OF NAZIANZUS

On God and Christ

The Five Theological Orations

ST VLADIMIR'S SEMINARY PRESS

CRESTWOOD, NEW YORK 2002

الكتـــاب : «فى اللاّهـوت» عن كتاب الخطب اللاّهُوتيّة (قيد الإعـداد).

المؤلــف : القديس غُريْغوريوس النّزينزىّ.

ترجمة وإعداد : الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى.

الطبعــة : الأولى ٢٠٠٨

المطبعــة : مكتب النسر للطباعة ٢٦٣٢٠٩٧١



الشهيد العظيم فيلوباتير مرقوريوس

(أبى سيفين)



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

ونيافة الأنبا صرابامون أسقف دير الأنبا بيشوى

في اللاّهُـــــوت

١- تحدثنا سابقًا عن النقاوة التي للاّهوتىّ، وعن كيف يجب أن يكون، وإلى من يتوجّه، ومتى؟ وإلى أىّ حدّ. وقلنا أنه ينبغي أن يكون مستنيرًا لكي يدرك النور بالنور، كما يجب أن يكون سامعيه ذو أذهان واعية، كي لا تأتي الكلمة بلا ثمار بسقوطها على أرض عقيمة (**مت١٣: ٥-٦، مر٤: ٤-٦، لو٨: ٦-٧**)، وفي ذات الوقت يجب أن نحفظ الهدوء دواخلنا، وأن نكون بعيدين عن الدّوامات الخارجية متجنّبين بذلك كل ما يُزعج أرواحنا.

هذه الحقائق تكلّمنا عنها المرة الماضية، وبهذا نكون حرثنا الأرض بهذا الحرث الإلهي، كي لا نلقي البذار وسط الأشواك (**إر٤: ٣**)، بل سوينا وجه الأرض (**إش٢٨: ٢٥**)، كما علّمنا الكتاب المقدس.

والآن، دعونا نتكلّم عن اللاّهُوت، بادئين عظتنا بموضوع، الآب والابن والروح القدس، كيما يؤيدّنا الآب، ويُعِيننا الابن، ويُلهمنا الروح القدس- بل قلْ حتى ينيرنا الضياء النابع من الإله الواحد، المتميّز في الوحدة، والوحيد في التميُّز.

٢- إني توّاق لصعود الجبل (**خر١٩: ٣، ٢٠، ٢٤: ٩-١٥**)- أو بتعبير أدق، الصعود بلهفة مشوبة بالقلق من أجل ضعفي- كي أدخل إلى الغمام (**خر٢٤: ١٨**) وأكون مع الله (إذ أن هذا هو أمر الله) (**انظرْ خر٢٤: ١٢**).

هل هناك من هرون؟ كي يتقدّم ويصعد معي (**خر١٩: ٢٤**)، ويقف إلى جانبي، ويقبل أن ينتظر حتى ولو بقى خارج الغمامة. هل من ناداب أو

أبيهو أو أحد الشيوخ؟ فليصعد ولْيقف بعيدًا وفقًا لأهليَّة نقاوته (**خر٢٤: ١-٢، ٩-١٠، ١٤، انظُرْ لا١٠: ١-٣**)!

إذا كان أحد من الحضور، غير مؤهَّل، لهذه الرؤية، وإن كان غير طاهر، فخير له ألاّ يقترب، لأن اقترابه فيه خطورة عليه (**خر١٩: ١٢**). وإن كان قد تطهُّر مؤقتًا فليمكث في الأسفل، وليكتفِ بسماع الصوت، والبوق، وكلمات التقوى فقط، ولينظر إلى الجبل الذي يدخّن ويبرق (**خر١٩: ١٦-٢٠**)، إن هذا المشهد هو تهديد لأولئك الذين لا يستطيعون الصعود. وإن كان هناك شرير خبيث غير قادر على تقبُّل كلمات التأمّل واللاّهوت، فلا يتخفَّ في الأدغال بمكر وخبث، ويتهيأ كي ينقض فجأة ليخطف كلمة أو رأيًا ما، ويبتلع **«الأقوال الصحيحة» (بي٢: ٨)** لتحويرها بالكذب والتزييف. مثل هذا فليمكثْ بعيدًا عن الجبل، والاّ فسيُرجم (**خر١٩: ١٣**)، ويُسحق (**لا١١: ٣٣**)، فالأشرار هلاكهم هلاكًا رديًا (**مت٢١: ٤١**)، لأن كلام الحق هو حجارة من صوان على رأس أولئك الذين يُشبهون الوحوش. وإذا كان فهدًا متقلب اللون فسيهلك هو وتقلّباته (**إر١٣: ٢٣**). وإذا كان أسدًا ثائرًا– يزأر مُلتمسًا من يبتلعه (**١بط٥: ٨**)، أو يعطل كلمة من كلماتنا، وإذا كان خنزيرًا يدوس جواهر الحقيقة الجميلة والمتألقة (**مت٧: ٦**)، أو **«ذئبًا من بلاد العرب» (حب١: ٨س)** ماكرًا وبارعًا فى مراوغاته، أو ثعلبًا فى نفس خبيثة يتكوّن حسب الحاجة والبيئة والظروف، ويغتذى بالجثث المنتنة، أو الكروم الصغيرة إذ أن الكبيرة تفوته (**نش٢: ١٥**). كذلك كل حيوان آخر من آكلات اللحوم النيئة التي يرذلها الناموس والتي ليست طاهرة، على الأقل كطعام (**تك٧: ٢-٣، ٨، لا٢، تث١٤: ٣-٢٠**). إن عظتنا تترك كل هؤلاء خلفنا، لأننا نريد أن نحفر

على ألواح صلبة من الحجر (**خر٣١:١٨**) وعلى كلا الجانبين من الألواح، لأن الناموس له وجه ظاهر ووجه خفي. الظاهر هو لأولئك الذين في أسفل الجبل، أمَّا الجانب الخفي فهو للذين بلغوا إلى القمة.

٣- ولكن ماذا دهاني، أيها الأصدقاء، والمحبون للحقيقة كما أنا مُحب لها؟ لقد أسرعت لكي أرى الله، وصعدت هكذا إلى الجبل، ودخلت الغمام، منفصلاً عن المادة والماديات، مُستجمعًا قوى نفسى قدرَ المستطاع. وعندما بسطت نظرى لم أكد أرى سوى ما قاله الربّ «**فتنظر ورائى**»، وكنت محتميًا بالصخرة (**خر٣٣:٢١-٢٣**)، بالكلمة الذي تجسد من أجلنا (**١كو١٠:٤، يو١:١٤**)، وعندما انحنيت قليلاً رأيت، لا الطبيعة الأولى التي تُعرف ذاتها، أعني بكل تأكيد الثالوث، الطبيعة التي داخل الحجاب الأول الذي يغشّيه الكروبين (**خر٢٦:٣١-٣٣،٣٦:٣٥-٣٦**)، ولكن ما يقع في الطَّرَف ويصل إلينا. وإذا إدعيت إني أعرف منه شيئًا، فإني عرفت عظمته، أو ما يسمّيه داود الإلهي «**جلاله**» (**مز٨:١،١١١:٣،١٤٥:٥،١٢**). الذي ينكشف على المخلوقات التي خلقها ويسوسها. وفي الأشياء التي أبدعها. إننا نعرف الله من ظاهره أو بالأحرى علاماته (**خر٣٣:٢٢-٢٣**)، إنه كظلال الشمس فوق سطح الماء، وكالخيال لأصحاب العيون الضعيفة، إذ لا يمكن لأحد التَّحديق في ذات الشمس، لأن نورها يخطف الأبصار. أجل هذا هو حال من ينطق باللاّهوت، وإن كنت موسى الذي بلغ أن يكون «**إلهًا لفرعون**» (**خر٧:١**) والرسول بولس الذي بلغ إلى السماء الثالثة وسمع كلمات تفوق الوصف (**٢كو١٢:٢-٤**)، وإن تفوّقت عليه، وكنت أُحسب من المراتب التي للملائكة أو لرؤساء الملائكة، فإن كل كائن سواء كان سماويًا أو فوق السماوي، وإن كان بطبيعته أرفع منّا جدًا وأقرب إلى

الله، فإنه مع ذلك يبقى بعيدًا جدًا عن الله، وبعيدًا عن إدراكه الكلّي، أكثر بما لا يُقاس عن بعده عنا.

٤- لذا يجب أن نبدأ بالعودة ثانية في أذهاننا: إنه يصعب إدراك الله، كما ويستحيل التعبير عنه، على حد ما علّمه أحد الفلاسفة الوثنيين؟[١] بإسلوب لا يخلو من فطنة على ما أظن، مُدْركًا أن هناك ما يصعب قوله، لكي لا يتعرّض للملامة لكون هذا الأمر لا يمكن أن يُعبر عنه. أمَّا أنا فأضيف أنه من الصعوبة بمكان أن نعبر عنه، لذا فمن المستحيل إدراكه. لأن ما يدركه المرء قد يستطيع أن يعبر عنه بصورة ما، وإن كانت غير مقنعة فعلى الأقل يكون فيها بعض الوضوح للمستمعين الذين يملكون آذانًا مُهيأة للسماع وعقولاً لم تفسد فسادًا كاملاً. ثم أن حقيقة كهذه لا يصعب إدراكها فقط على الذين ينـــزعون إلى الأرضيات وحسب، بل ويصعب أيضًا على المستغرقين في الترفع والإرتباط بالله، بل على أىّ طبيعة مولودة، أىّ على كل ما يُظْلِم من الجسد دون إدراكه الحقيقة. ولا أدرى إذا كان ممكنًا للطبائع السمائية الروحية، كونها أكثر قربي من الله وهي تستضئ بنوره. قد يجوز أن يدركوه لا كليًا، بل بصورة أكثر كمالاً ووضوحًا من الصورة التي لنا نحن، البعض من الملائكة يدركون أكثر والبعض يدركون أقل كلّ على حسب رتبته.

٥- فلنقف عند هذا الحدّ! ولنبحث ما يتعلّق بنا، ليس هو **«سلام الله»** فقط الذي **«يفوق كل عقل»** (**في٤**:٧) وكل إدراك، بل كل الخيرات والنِعَم والمكافآت المعدّة للصالحين حسب وعد الله، ممّا لم تره عين ولا سمعت به

(١) أفلاطون: تيماوس ٢٨.

أذن، ولم يخطر على بَالِ إنسان (**١كو٢:٩**)، بل كن على يقين يا هذا أنك لا تدرك من الخليقة إلاّ الظلال عندما تسمع هذا القول: «**إني أرى السموات عمل أصابعك القمر والنجوم أنت أسستها**» (**مز٨:٣**). وذلك وفقًا للنظام الثابت الذي يوجّهها ويقودها. وإذا كنا لا نراها الآن فسوف نراها وندركها فيما بعد، بل إنه قبل هذه الأمور كلها، أن الكائن قبل كل هذه، هو غير مُدْرك وغير محدود لأنها منه أتت. «**إن كرازتنا ليست باطلة ولا إيماننا باطلاً**» (**١كو١٥:١٤،١٧**)، وليس ما نعلّم به من الباطل. وها أنا أوضح الأمور بصراحة. ولكن حتى لا تكون الصراحة سبيلاً للإلحاد والخداع على العقائد، وحتى لا تتعالى يا هذا على حسابنا وتقول إن موقفنا موقف جهل بالنسبة إلى الله[1]. فالفرق كبير جدًا بين الإعتراف بوجود الشيء والإقرار بالتقصير عن معرفته.

٦- إن الجمال والنظام الطبيعيين يُعلماننا أن الله موجود، وأنه هو الذي خلق الكون وهو الذي يُديره. أننا نرى المخلوقات المنظورة المثبتة جيدًا تسير وتتحرّك وتدور وكأنها لا تسير ولا تتحرّك ولا تدور، إن نظام كل هذه الأشياء التي نراها يحمل الخالق إلى فكرنا، لأنه كيف يمكن أن يُخلق هذا الكون، وأن يتماسك إذا لم يكن الله خالق الأصل ومُتعهده بالحفظ؟ إن الإنسان عندما يرى قيثارة مصنوعة بإتقان وفن وتناسق، أو عندما يسمع صوتها فإنه لن يفكر إلاّ بمن صنع القيثارة وبمن يعزف عليها،

---

(١) هذه الاتهامات بالتحديد كانت تصدر عن الهراطقة، وكان ق. غريغوريوس يخالف أفنوميوس الهرطوقي في الرأي، ويقول بأننا نستطيع معرفة وجود الله لا جوهره، ولهذا كان هؤلاء الهراطقة يتهمون المؤمنين بالكفر والإلحاد وبأنّهم لا يؤمنون بالله.

ولن يذهب فكره إلاّ إلى هذا العازف حتى ولو لم يكن قد رآه[1]، هكذا يذهب فكرنا فورًا إلى الخالق الذي يُحرّك الكون ويثبته. هكذا فكرنا يتجه إليه مع أنه لا يستطيع أن يستوعبه. وما أجحد من لا يسلك به فكره هذه الطريق ولا يتبع البراهين الطبيعية! أجل ليس إلهًا ما تخيله خيالنا، وما تشكل في خاطرنا، وما حاكه فكرنا. من وصل هكذا إلى غاية الحكمة؟ من أُهل أن يملك مثل هذه الموهبة العظيمة؟ من فتح **«فم»** العقل و**«اجتذب الروح»** (**مز١١٨: ١٣١**) الذي يفحص كل شيء حتى أعماق الله (**١كو٢: ١٠**). مثل هذا لا يحتاج إلى شيء آخر، ما دام فيه الصلاح الفائق العلو الذي يُسرع إليه الفكر، وتُسرع إليه الحياة بكمالها.

٧- أيّ مفهوم يكون لك عن الألوهة، إذا كنت تثق ثقة حقيقية بكل البراهين العقلية؟ وإلى أين يصل بك هذا النقاش، أيها الفيلسوف العظيم، واللاّهوتيّ القدير، والمتعاظم بلا حدود؟ هل الألوهة جسد؟[2] إذا كان كذلك، فكيف يكون غير محدود، وغير مُحوى، وغير قابل اللّمس والرؤية؟ ألعل هذه الصفات هى صفات مادية؟ يالَفساد هذا الرأي! لا، ليست هذه طبيعة الأجساد. أو هل تكون الألوهة جسدًا بغير هذه الصفات؟ يا للجهالة! وكأن الألوهة لا تملك شيئًا أكثر ممّا تملك. فكيف تُعبد إذا كانت ذات حدود؟ وكيف تنجو من الإنحلال أو من الفناء

---

(١) مَثَل القيثارة هذا من ابتكارات أفلاطون (فيدون ٧٣)، وهو فيه يرتقي من وجود القيثـارة إلى وجود مالكها، بينما يرتقي ق. غريغوريوس إلى وجود الصّانع.

(٢) كان الرواقيون يذهبون إلى أن طبيعة الله نسمة أو نار، أي أحد العناصر الدقيقـة، وهـي في نظرهم مادة جسديّة.

الكامل إذا كانت مركبة من تلك العناصرالمادية؟ لأن التركيب عامل صراع، والصراع عامل انقسام، والانقسام عامل زوال، والزوال هو أمر غريب عن الله كليًا، وغريب عن الطبيعة الأولى. فليس ثمَّة انقسام في الله، ولا تركيب حتى لا يكون هناك صراع، ولهذا فليس ثمَّة جسد لله حتى لا يكون هناك تركيب. وبهذا الاستدلال يصل العقل إلى هذه النقطة مُتدرجًا من الأعلى إلى الأدنى.

٨- إذا كان من الممكن أن يدرك الإنسان الله، أو كان إدراك الله ممكنًا، فأين تكون العقيدة بأن الله في الكلّ ويملأ الكلّ، حسب ما جاء في الكتاب: **«ألست مالئ السماوات والأرض؟ يقول الربّ»** (إر**٢٣: ٢٤**)، و**«روح الربّ ملأ المسكونة»** (**حك١: ٧**) لأنه إمَّا أن يزول الكلّ ليتحرك الله في الفضاء، وهكذا يُهان الله مادام يتخذ جسدًا، ويهرب من سلطانه جميع مصنوعاته، وإمَّا أن يكون جسدًا في الأجساد، وهذا أمر مستحيل[١]، وأمَّا أن يدخل في أجسام أخرى[٢]، ويختلط بها اختلاط السوائل، فيُذيب أو يذُوب، الأمر الذي هو أكثر عجبًا وسخفًا من نظرية أبيقور عن الذرات، ومن **«الخرافات العجائزية»** (**١تي٤: ٧**)، وهكذا فإن نظرية الأجساد تسقط كليًا أمامنا إذا لا جسد لها وتفقد وجودها.

وإذ قلنا أن الله غير مادىّ، أو حسب ما يرى البعض، عنصر خامس[٣] يدور دائريًا، وإن كنت لا أريد الآن مناقشة هذا الموضوع- فحتى لو كان

(١) هذا أمر مستحيل لأن الكتاب المقدس يقول إنه يملأ كل شيء.

(٢) في هذا الكلام إشارة إلى ما ذهب إليه الرواقيّون من تداخل الأجسام.

(٣) فرضية كان يعتنقها البعض، ومنهم أرسطو.

الله شيئًا هيوليًا أو جسدًا خامسًا، أو إذا أرادوا أن يقولوا أنه غير جسدي، في نظريتهم عن الفساد الذاتي وإعادة الجبلة. فإذا أعطوا له هذه الصفة فأين يجد مكانه بين الكائنات المتحركة التي تعصف بها الحركة، هذا بغض النظر عن الإهانة التي تلحق بالخالق إذا تحرّك بحركة مصنوعاته؟ ولكننا نتساءل أيضًا إذ سلّموا بهذا الرأي؟ من هو الذي يحرّكه ومن يحرّك الكون، ومن يكون هذا الأخير وممّن يستمدّ الحركة؟ وهكذا دواليك بلا نهاية وإذا كان الله في دوّامة هذه الحركة فكيف لا يكون له مكان البتة؟

ولئن قالوا أن الله مختلف عن العنصر الخامس أو أن له جسدًا ملائكيًا، فمن أين نعرف أن الملائكة لها أجساد، وما هي نوعية تلك الأجساد؟ وكم هو الله أسمى من الملائكة؟ أليس الملاك خادمًا لله؟ (انظرْ عب١: ٤، ١٤) وإذا كان الله أيضًا أعلى من هذه الأجسام؟ فإن أسرابًا من الأجساد لا تعد تدخل في هذا النطاق، إن هوّة من الترهات والحماقات لا يمكن أن يحدّها مكان.

٩- فحسب تعلّيمنا إذًا، الله لا جسد له، ولم يقم نبي (**٢أي٣: ١٦**) ويقل غير هذا أو يوافق على غير ذلك (**يو١٠: ١٦**). وحتى هذا التعبير «لا جسد له» لا يمكن أن يمثل أو يصوّر جوهر الله، وكذلك التعبيرات «غير مولود»، «لا بدء له»، «غير متغيّر»، «غير قابل للفساد»، وكل ما يقال عن الله أو يتعلّق به.

في الواقع ما هو الشيء الإيجابي لمعرفة الطبيعة الإلهية الذي تقدّمه لنا هذه الصفات: «لا بدء له»، «غير متغيّر»، «غير محدود»؟ حتى ذاك الذى يملك فكرًا إلهيًا والمتقدّم في البصر والبصيرة والراسخ في العلم، حتى ذاك

يعجز عن احتواء معرفة ماهية الله مهما بحث ونقبْ، وكما أنه عندما نريد أن نشير إلى هذا أو ذاك لا يكفي أن نقول أن له جسدًا وإنه يلد، بل يجب الكشف عن الحقيقة الكامنة في كل لفظة، فقد يكون هذا الكائن إنسانًا أو ثورًا، أو حصانًا، وهكذا لا يكفي هنا أن تتوقّف عند قول ما ليس هو، بل يجب علينا، بعد قول ما ليس هو، أن نقول أيضًا ما هو. وإنه لمن السهل إدراك الشيء في ذاته من أن تنفي جميع العناصر واحدًا فواحدًا لكي نُوصل ما نفكر فيه إلي ذهن السامع، مميّزين أولاً ما ليس هو، ثم مُثبتين ما هو. فمن يقول عن الشيء ما ليس هو ويتغاضى عمَّا هو، مثل هذا وكأنه يجيب عن السؤال «ما مجموع خمسة وخمسة» بالقول: لا هو اثنان، ولا ثلاثة، ولا أربعة ولا خمسة، ولا عشرون، ولا ثلاثون، ولا أي شيء من هذه الأرقام من دون العشرة أو فوق العشرة، من غير أن يقول أنها تساوي عشرة ولا يقنع فكر من يسأله ليتعلّم. إنه لمن الأسهل والأقرب إلى التناول أن تبرهن ما ليس بالشيء ذاكرًا ما هو، من أن تنقص كل ما ليس هو لإظهار ما يكون. أليس هذا أمرًا واضحًا لكل إنسان.

١٠- مادام الإلهي لا جسد له، فعلينا أن نواصل بحثنا شيئًا فشيئًا: أتوجد الألوهة في مكان ما أم أنه لا مكان لها؟ إذا كان حقيقة غير موجود في مكان ما، فلابد لفضول الباحثين أن يسأل عن امكانية وجوده لأن الغير موجود لا مكان له، وما لا مكان له لا يكون في الأغلب له وجود أيضًا. وإذا كان موجودًا في مكان ما- إذ هو موجود- فلابد أن يوجد إمَّا في الكون وإمَّا فوق الكون- لكن إذا كان موجودًا في الكون فوجوده يكون إمَّا في جزء من الكون، أو في كلّ الكون. فإذا كان موجودًا في جزء واحد يكون هذا الجزء هو حدّها، أمَّا إذا كان موجودًا في كل مكان فسيوصف

بصورة أكبر، لأن الحاوي أكبر من المحتوى. إذا كان الكون ينحصر في الكون فلن يكون هناك أي مكان إلاّ وقد وُصف. هذا إذا كانت الألوهة وسط الكون فأين كان الله قبل أن يخلق الكون؟ هذا السؤال يُوقع في حيرة عظيمة.

وإذا كانت الألوهة فوق الكون، تُرى ألم يكن شيء يفصلها عن الكون؟ وأين هو ما فوق الكون؟ وكيف يُفهم الكون الأعلى والكون الأدنى مادام لا يوجد حدّ ليفصلهما ويميز بينهما، أم أنه يجب أن يكون هناك حدّ يفصل ما بين الكون وفوق الكون؟ أيمكن أن يكون هذا المكان غير المكان الذي نتهرب منه منذ أول حديثنا؟ لا يمكننا قطّ أن نقول أن الألوهة موصوفة ومفهومة بالفكر لأن الإدراك هو نوع من الوصف.

١١- لماذا ذكرت كل ما ذكرت بطريقة غريبة على آذان الكثيرين؟ وما لي أتكلّم بالطريقة السائدة الآن؟ هذا النوع من الكلام الذي يحطّ من قيمة الكلام الرصين البسيط، ويُدخل بدلا منه الكلام المُلتو؟ وكما تُعرف الشجرة بثمارها (**مت٧: ١٩-٢٠**) كذلك نميز الظلمة التي تولد مثل هذه الآراء الفاسدة من خلال الكلمات القاتمة. أنا لم أفعل ذلك قطعًا لكي أتظاهر بأني أقول أشياء عجيبة، وأني أملك حكمة فائقة مُؤلفًا مشاكل صعبة وحالاً بها رموزًا وتآويل- هذه العجيبة العظيمة من شأن دانيال النبي (**دا٥: ١٢**)-، بل فلأوضح ما ابتدأت به في كلامي وقلته: ما هو ذاك؟

إن العقل البشري لا يمكن أن يُدرك الألوهة ولا أن يتخيّلها بكلّيتها وهذه ليس غَيرَة من الله على ذاته. لأن الله ليس فيه هوى، وهو الصالح وحده والسيّد الذي لا غَيرَة فيه، وخصوصًا وهو فوق كل مخلوقاته، بل إن

أهم الكائنات العقلية والروحية أي الملائكة إنما خُلقت من فيض صلاحه، ولم يخلقها من أجل حبه للمجد والتكريم. فلنحترمه ونكرْمه لأن الله كائن مكتفٍ بذاته، وإنه بعيد أشد البعد عن الحسد والغَيرَة وحب المجد، بل أيضًا إن هذه أمورًا غريبة عن كل إنسان متواضع وذي ضمير حي.

١٢- وإن كان هنالك أسباب أخرى، فقد يكون الذين هم أقرب إلى الله أن يعرفوه بأحكامه التي لا تُستقصى (**رو١١: ٣٣**)، هذا إذا وجد بشر قديسون يتحلّون بمثل هذه الفضيلة **«ويجولون في أعماق الغمر»** (**أي٣٨: ١٦س**) على حسب ما يُقال. أمَّا نحن في نطاق إدراكنا المحدود فنحن نقيس الأمور الصعبة الرؤية بمقاييس صغيرة، فيجب أن نفهم هذا الأمر في العلاقة مع الله وتدرجنا في الوصول إليه كما يأتي: إن الحالة يجب أن تكون دائمًا حالة جد وجهاد مستمر في الفضيلة وتنقية الفكر ذلك أن ما يحصَّل بتعب وكدّ يكون الحرص عليه أشدَّ، وما نحصل عليه بسهولة يضيع بسرعة، ويكون في موضع اللامبالاة منا، على اعتبار أننا نستطيع أن نناله ساعة نشاء وهكذا فمن الأفضل أن يكون الخير صعب المنال، ومن الجهة الأخرى، كي نتجنّب المصير الذى صار إليه كوكب الصبح لوسيفورس (**إش١٤: ١٢**) الذي سقط لأنه تكبر أمام الرب القدير (**أي١٥: ٢٥**)، وانفصل عن النور، وهَوَى ساقطًا من كبريائه سقطة مهينة (**انظُرْ أم١٦: ١٨، لو١٨: ١٤**). وأخيرًا نعى أن الألوهة غير مُدْركة لأنها إكليل الجهاد والحياة الفضلي المنيرة هذا الإكليل ينتظر أولئك الذين تطهَّروا في هذه الحياة ويتوقون إلى الله وإلى الشغوفين به. لهذا السبب يحول بيننا وبين الله هذا الظلام الجسدي كما حالت الغمامة قديمًا بين المصريين والعبرانيين (**خر١٤: ١٩-٢٠**). وأنا أفهم بالآية: **«جعل الظلمة ستره»**

(مز١٨: ١١) أنه يقصد بالظلمة هزالة الجسد التي من خلالها لا يمكننا أن نرى إلاّ القليل. فليتفلسف الذين يريدون أن يتفلسفوا حول هذه الحقيقة. وليْسيروا في مسار فكرهم قدْر ما يستطيعون أمّا نحن **«أسرى الأرض»** (مرا٣: ٣٤) على حسب قول إرميا الإلهي، الذين لبسنا هذا الجسد الكثيف، فَجلٌ ما نعرفه هو أن المرء لا يستطيع أن يتجاوز ظلّه مهما يسرع، كما أنه لا يستطيع أن يرى الأشياء المنظورة بمعزل عن الهواء والنور، كما يستحيل على من هم في الجسد أن ينقطعوا تمام الانقطاع إلى الأمور الروحية بمعزل عن الأمور الجسدية. حتى ولو تمكن العقل أن ينفرد كليًا بذاته ويحاول أن يلامس الأمور غير المنظورة وكل ما هو من طبيعته. هذا ما يجب أن تدركه.

١٣ - «روح» (يو٤: ٢٤)، **«نار»** (تث٤: ٢٤)، **«نور»** (يو٩: ٥)، **«محبة»** (يو٤: ١٦)، **«حكمة»** (أي١٢: ١٣)، **«عدل»** (مز١٠٢: ١٧)، **«عقل»** (إش٤٠: ١٣)، **«كلمة»** (يو١: ١)، أليست هذه الألفاظ هي التسميات الأولى للطبيعة؟[1] كيف ستدرك الهواء بدون خواصه: الحركة والانتشار؟ كيف ستدرك النار بدون اللهيب وارتفاعه إلى فوق، وبدون الشكل واللون؟ كيف تدرك النور منفصلاً عن الهواء ومستقلاً عن نبعه الذي يولد منه ومنه يأخذ شعاعه؟ كيف ستدرك العقل دون حامله؟ كيف ستدرك الكلمة؟ وهل هي شيء غير ذاك الذي يستريح في داخلنا أو يطوف خارجنا؟ أتردّد أن أقول أن الكلمة إذا كانت غير ذلك تنحل. وما قولك بالحكمة وكيف

---

(١) يفسر القديس غريغوريوس هذه الألفاظ تفسيرًا رمزيًا إذ إن الله في نظره لا جسد له. وكان الرواقيون يطلقون على الله أيضًا «الروح» و«النار» ولكنهم كانوا يذهبون إلى أن الله كائن ذو جسد.

نفهمها؟ وهل هي غير إمكانية البحث في الأمور الإلهية والبشرية؟ وما قولك في العدالة والمحبة؟ هل هما ليسا سوى صفتين صالحتين، الأولى ضد الظلم، والثانية ضد البغضاء، وهاتان الفضيلتان تعظمان أو تصغران. وامتلاكهما أو فقدانهما متوقف على مسلكنًا، لا، بل إنهما لنا كالألوان بالنسبة للأجساد. أيجب أن نبتعد عن الأجساد ونرى الألوهة في ذاتها، هذا شيء محدود ويعطينا فكرة وصورة بسيطة. بأيّة أداة سينظر المرء إلى الله من خلال الجسد؟ يتعب عقلنا بالابتعاد عن الجسديات بحيث يبحث بضعفه أمورًا تفوق قواه، لأن كل طبيعة عاقلة تشتاق إلى الله الخالق والعلّة الأولى، إلاّ أنها تعجز عن إدراك ذلك للأسباب التي ذكرتُها. يظهر أن الشوق يتعبها لذلك تقشعر وتنكفئ على ذاتها، وترعى المنظورات ويقودها الضلال إلى أنه تؤله واحدة منها بسبب جهلها وإمَّا أن تعرف الله من خلال جمال الأشياء وتناسقها، فتكون الرؤية دليلاً على ما وراء الرؤية، ومن غير أن يضيع الله في غمرة العظمة التي تتجلّى في الأشياء المرئية.

١٤- البعض يعبدون الشمس، وآخرون القمر، والبعض الآخر الكواكب العديدة والبعض السماء نفسها ونجومها. البعض ألّه العناصر أيّ التراب والهواء والنار والماء، لما لها من فائدة، وبدونها لا يمكن أن توجد الحياة على الأرض، والبعض ألّه الأشياء الجميلة. وهناك من أقاموا لأمواتهم تماثيل لأنهم في حزنهم يريدون أن يروهم، ومن خلال هذه التماثيل يكرّمونهم. وفيما بعد رأى اللاحقون أن تكريم هذه التماثيل هو واجب إذ إن كل أصحابها غرباء عنهم وسابقين، وصارت تلك العادة أمرًا شرعيًا وضروريًا. ثمَّ تملَّقوا الأقوياء ومدحوا السلاطين وأعجبوا بالجمال، فأدخلوا

مع مرور الأيام عبادة من كانوا يُعظمون، وربطوا هذه العبادة بنوع من الأساطير ساهمت في خداع البشر.

١٥- من كانوا منهم أكثر خضوعًا للشهوات رأوا في تلك الشهوات آلهة وأعطوها كرامات إلهية: كالغضب والقتل والدعارة والسُّكر وكانوا يجدون المبرّرات لخطاياهم فألّهوا وألّهوا وما أكثر ما ألّهوا! البعض جعلوا آلهتهم تحت الأرض. والبعض الآخر جعلوها فوق الأرض. والبعض أصعدوها إلى السماء. يا للسخرية!

لقد أعطوا لكلّ صنم اسمًا. هذا سموه إله وذاك شيطان[1]. وكانت هذه الأصنام مصنوعة بصورة فنية فيها من الزخارف ما يغرى، وجعلوا الدم سبيلاً لتكريمها، كما توسلوا الفسق والدعارة والخدعة والقتل والذبائح البشرية لأجل تكرّيمها، لقد كان حريّ بهذا النوع من الآلهة، هذا النوع من التكرّيم المخزي. لقد مجدوا وعبدوا الحيوانات المفترسة والزحافات (**انظُرْ رو١: ٢٣**) وسجدوا لمثل هذه الأصنام فصاروا سخرية لأنفسهم، ولم يعد هناك فارق بين قذارة العابدين وقذارة المعبود. إن الذين يعبدون الأصنام هم جديرون بالاحتقار. لأنهم وهم المزينون بالمواهب الإلهية فضلوا التافه على الحقيقي، والسيء على الصالح، وهذا من عمل الشرير الذي أساء ليعمل الشرّ. وهل يفعل الشرير غير ذلك؟ وهو إنما يفعل هذا حتى يصبح مركز قوة، ويسرق الكرامة ويستر الشهوات الفاسدة، وهكذا جرّ البشر التائهين الباحثين عن الله بشوق مُمسكًا بأيديهم كما يمسك الأعمى بيد من يحاول أن يجد طريقه، فألقاهم في الهاوية وشتتهم في أماكن

---

(١) الشيطان هنا بمعنى الكائن الأسطوريّ المتوسط بين الله والإنسان.

مختلفة من ديار الموت والفناء.

١٦- هكذا فعل هؤلاء. أمَّا نحن فإن منطقنا يقودنا لنطلب الله فلا نقبل أن يكون العالم بدون سيّد يحكمه، إن عقلنا يبحث ويفتش في المنظورات، ويلامس الأمور الحسيّة الأولية ويتتبّع ما كان منذ البدء، فلا يقف عندها لأنه لا يليق بالعقل أن يعطي السيادة على المسكونة لمن هم يساووننا في الحواس، فقادنا عن طريقها إلى من هو فوق المحسوسات، ومن هو مصدر وجودها. من ذا الذي نظّم الكائنات السماوية والأرضية، وكلّ ما يتحرّك في الهواء، ويعيش في الماء، وكلّ ما كان قبلها، أي السماء والأرض والماء والهواء؟ من الذي جمعها وفصلها؟ كيف تتجاذب وتفترق؟ إني أعجب بمن قال وإن كان من غير أهل الإيمان: «من ذا الذي يوجّه الحركة في هذه، والذي يقودها في مدار ولا يمنع حركتها شيء؟»[1] أليس خالق الجميع هو مكونها ومعطيها الحياة؟ ولكن من يكون هذا الخالق؟ أليس هو الصَّانع الذى صنعها وأتى بها إلى الوجود؟ لا يمكننا أن ننسب هذه القوة إلى الصدفة. ولو قبلنا أن الصدفة خلقتها تُرى من الذي يمسكها وينظمها؟ وهكذا فإن العقل المغروس فينا، وهو الناموس الأول فينا والسيّد المشترك بين كل البشر هو الذي يرفعنا من المنظورات إلى الله. فلْنعدْ إلى بداية حديثنا.

١٧- لم يكتشف أحد قطّ ولن يكتشف ما هي طبيعة الله، وما هو جوهره، ومن يرغب فليفتش ولينقبْ وليبحث ويدلّنا على من تمكن أن يحقق ذلك. ولكن متى سنجده؟ إن الإنسان يجد الله عندما يتّحد بالله الذي

---

(١) أفلاطون: القوانين: ٨٩٦، ١٠ أ.

جاء منه، آنئذ ترتقى الصورة إلى من أُخذت عنه ومن تصبو إليه. وأعتقد أن الآية التي تقول بأننا سنعرف الله جيدًا وعلى قدْر ما يكشف لنا هو، هي فلسفتنا العليا. ما نعرفه الآن نقطة صغيرة تصل إلينا كانعكاس صغير لنور عظيم (**١كو١٣:١٢**) إذا قال الكتاب المقدس إن كان أحدًا قد عرف الله فإنه يعني أنه عرف قليلاً (**حك٧:٢٦**). وهذا القليل يكفي لأن يجعله أكثر إشراقًا من كل إنسان آخر لم يحصل على هذا الإشراق، وهذا التفوق إن كان اُعتبر كمالاً فلأنه قيس لا على الحقيقة بل على التقريب.

١٨- لذا فإن أخنوخ رَجا أن **«يدعو باسم الرب»** (**تك٤:٢٦**). وكان تحقيق ما أراد بالرجاء، رجاء استدعاء الربّ لا رجاء معرفته. وأُخذ أخنوخ (**تك٥:٢٤**)، ولم يُعرف بعد هل كان ذلك بعد إدراكه طبيعة الله، أو من أجل إدراكها. والله كذلك اختار نوحًا ليخلص هو وأهل بيته (**تك٦:٩**) ويُبقى نواة من العالم بالفُلْك الصغير (**تك٦:١٣-١٩**) وهذا لا نعرف على أيّ مقدار عرف الله. وإبراهيم أبو الآباء العظيم تبرّر بالإيمان (**تك١٥:٦**، **رو٤:٣**)، وقدّم ذبيحة عجيبة كانت رمزًا للذبيحة العظيمة (**تك٢٢:٢-١٤**) غير الدموية إلاّ إنه لم ير الله في ألوهته (**تك١٨:١-١٥**)، بل استضافه كإنسان، فامتُدح على قدْر برّه وإدراكه. وكذلك يعقوب رأى في حلمه سُلّمًا مُنتصبًا وملائكة تصعد وتنـزل عليه (**تك٢٨:١٢**)، فصبّ زيتًا (**تك٢٨:١٨،٣٥:١٤**) على العامود بوجه رمزيّ- لعل في ذلك إشارة إلى الحجر (المسيح) الذي مُسح لأجل خلاصنا (**لو٤:١٨**)- وأعطى له اسم **«بيت الله»** (**تك٢٨:١٧**) تكريمًا لمن رآه، لقد تصارع هذا الأب العظيم يعقوب معه كما يتصارع مع إنسان (**تك٣٢:٢٤-٣٠**)، وبقيت في جسده آثار الصراع التي دلت على انتصار الطبيعة المخلوقة. كما دلّت على تقواه

فانتقل اسمه من يعقوب إلى إسرائيل (**تك٣٢: ٢٨-٣٠**) أي اسمًا عظيمًا مُكرمًا. ولكن لا هو، ولا أحد من أسباطه الاثني عشر، الذين كان لهم أبًا، استطاع إلى اليوم أن يدَّعي بأنه عرف طبيعة الله، أو أنه شاهدها مشاهدة تامّة.

١٩- إن إيليا كما نعرف لم ير طبيعة الله، بل ظلالها وقد رأى هذه الطبيعة لا في الرياح العاصفة، ولا في النار ولا في الزلزلة، بل في النسيم العليل (**١مل١٩: ١١**) حيث تمثّل له طيف الحضور الإلهي، لا طبيعة الله ذاتها. ومن هو إيليا؟ إنه الإنسان الذي رفعته مركبة نارية نحو السماء (**٢مل٢: ١١**)، حتى يظهر أن الإنسان البار هو فوق البشر.

وكيف لا تُعجب بما ذُكر في سفر القضاة عن القاضي منوح أولاً، ثم عن بطرس التلميذ ثانيًا، الأول لم يحتمل رؤية شكل الله. لذلك يقول: **«نموت موتًا لأننا قد رأينا الله»** (**قض١٣: ٢٢**). ذلك لأن البشر لا يمكنهم أن يتحملوا لا الظهور الإلهي ولا الجوهر الإلهي. وكذلك بطرس التلميذ عندما أظهر له المسيح ذاته في السفينة، طلب منه بطرس أن يغادر السفينة مع أنه كان أشدَّ حرارة من الأخرين ليعرف المسيح جيدًا ولهذا طوّبه السيّد (**مت١٦: ١٧-١٩**). وما قولنا أيضًا في إشعياء، وحزقيال وكلاهما رأيا الرؤى العجيبة؟ ماذا نقول عن سائر الأنبياء؟ إشعياء رأى ربّ الصباؤوت جالسًا على عرش المجد مُحاطًا بالسيرافيم ذوات الستة الأجنحة يمجدونه وهم يسترون وجوههم بأجنحتهم، ورأى جمرًا مشتعلاً ولامسّ الجمر فاه بملقط الملاك ليطهّره ويكون كاملاً للنبوة (**إش٦: ١-٨**). أمّا حزقيال فيصف المركبة الإلهية من الشيروبيم والعرش الذي فوقها والجَلَد الذي

فوق، وما ظهر منه الجَلَد وبعض الأصوات والحركات والأعمال (**حز١: ٤–٢٨**). لا أدرى إذ كانت كل هذه الرؤى صارت ظهورًا واحدًا في النهار، هذا الظهور الذي لا يمكن أن يراه إلاّ القديسون، أم أنها رؤية حقيقية حصلت في الليل، أو صورة نبوية كُشف بها عن المستقبل كحاضر أو أمر آخر غير مُدرك؟ إله الأنبياء وحده يعرف ذلك وكذلك أولئك الذين أُعطوا من فوق. ومع ذلك لا هؤلاء الذين تكلّمنا عنهم، ولا أي إنسان آخر ممّن يشبههم أدرك الألوهة، أو وصف طبيعة الله.

٢٠– إذ كان ق.بولس يستطيع أن يعبر عما رأى وسمع في السماء الثالثة (**٢كو١٢: ٢–٤**)، وبالصعود حتى ذلك المكان يمكننا أن نعرف شيئًا أكثر فيما يتعلّق بالله، فلماذا لم يخبرنا عما هنالك إذا كان يعرف شيئًا من غاية الاختطاف؟ ذلك لأن ق.بولس نفسه لم يدرك شيئًا. بل ترك لنا أن نكرّم بصمت ما قد عاينه وذكره ولنستمع فقط له عندما يقول: **«لأننا نعلَم بعض العلَم ونتنبأ بعض التنبؤ»** (**١كو١٣: ٩**). هذا اعتراف الرسول بولس المناضل العظيم ومعلّم الحقيقة الذى سمع كلمات سرّية لا يُنطق بها وهو يقرّ أن كل علمنا ههنا ليس سوى نظر في المرآة وفي الألغاز (**١كو١٣: ١٢**). أرجو أن لا تنظروا إليّ نظرة من يبالغ في معالجة هذه الموضوعات الإلهية. وقد أشارت الحكمة الإلهية للتلاميذ بقول الربّ لهم: **«إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن»** (**يو١٦: ١٢**). ويوحنا السابق للكلمة[1]، الصوت الجهورى للحقيقة، قال: إن العالم نفسه لا يمكنه أن يسع هذه الحقيقة (**يو٢١: ٢٥**).

---

(١) دُعي هنا يوحنا الإنجيليّ سابقًا للكلمة لأنه دعا إلى التبشير بالكلمة في مقدّمة إنجيله.

٢١- إننا كمن يحاول أن يجمع ماء البحر بالوعاء، عندما نحاول معرفة الحقيقة بالحكمة البشرية، وعندما نبحث عن المعقولات بالحواس التي تحملنا إلى هنا وهناك وتضلّلنا وتخدعنا، إذ يتعذّر بعقلنا المجرد أن نبحث الموضوعات العادية، وأن نقترب أكثر فأكثر من الحقيقة، وان تكون أفكارنا وفقًا للأشياء التي ندركها. إننا كلما أردنا أن يكون إدراكنا للحقيقة عن الله أكثر كمالاً، كلما كانت الحقيقة أكثر صعوبة ومشاكلها مضنية، وكذلك طرق إدراكها وفهمها لأن كل اعتراض مهما يكن صغيرًا يقطع الطريق نحو الحقيقة، ويمنع الطريق عن الكلمة وعن كل حركة إلى الأمام كما يمنع أولئك الذين يمسكون اللجم بأيديهم الجياد من حسن السير، ويحولون طريقها بحركة واحدة. هكذا نرى أن سليمان العظيم الذي فاق كل من سبقه بالحكمة، وكل من عاصره إذ وهبه الله عقلاً وسعة معرفة أكثر من كل الناس (**١مل٣: ١٢**)، أصابته الحيرة والدوار حين استعمل كل حكمته لمعرفة ما ينقصه (**٢مل٤: ٢٩**)، وخصوصًا في الأمور الإلهية، ورأى في خاتمة مطافه كم تباعدت الحكمة عنه (**جا٧: ٢٥، ٨: ١٧**).

إني لا أتجاسر أن أقول أن ق. بولس حاول أن يقترب من طبيعة الله لأن الاقتراب مستحيل. إنه حاول أن يفهم أحكام الله لا غير (**رو١١: ٣٣**)، وبما أنه لم يجد مخرجًا للمعرفة انتهى به الأمر إلى الحيرة والعجب واعترف بأن أحكام الله لا تُدرك، وفاه بما يماثل أيضًا كلمات داود النبي **«أحكامك لجة عظيمة»** (**مز٣٦: ٦**)، ويسمى أحكام الربّ عمقًا لا يُدرك ويعترف **«عجيبة هذه المعرفة، فوقي ارتفعت، لا أستطيعها»** (**مز١٣٩: ٦**).

٢٢- ما هو تكويننا؟ وكيف نتحرك؟ كيف امتزج غير المائت بالمائت؟ كيف انحدر إلى أسفل، وفي الوقت نفسه اتجه إلى فوق؟ كيف تنحصر النفس في الجسد؟ كيف تُبعث الحياة وتشترك في الوقت نفسه بالآلام؟ كيف يكون العقل أحيانًا محدودًا وأحيانًا غير محدودًا معًا، مُقيمًا في داخلنا ويتابع الكل بحركة سريعة؟ كيف يستعمل الكلمة ويشارك في التفكير ويسير في الهواء ويدخل بين الأشياء! كيف يتواصل والحواس ثم يجمع ذاته خارج الحواس؟ وقبل كل ذلك كيف صرت في مصنع الطبيعة أول جبلة وأول تشكيله (مز١٣٩: ١٣-١٦)؟ وكيف نلنا صورتنا الأخيرة وكامل قوانا؟ كيف تنشأ لدينا الرغبة في الطعام وكيف يتوزع فينا هذا الطعام؟ من هدانا إلى أثداء أمهاتنا وإلى بدء الحياة؟ كيف يتغذى الجسد بالطعام والنفس بالكلمة! ما هي الجاذبية الطبيعية والعلاقة بين الآباء والأبناء والتواصل العاطفي بينهم؟ كيف يتشابه البشر؟ كيف تكون الطبيعة البشرية واحدة في كل البشر وكيف يختلف الواحد عن الآخر في المزاج والطبع ويكونون مختلفي الصفات؟

كيف يكون الكائن ذاته مائتًا بالموت ومخلوقًا بالولادة؟ مثل مجرى النهر الدائم هذا، يمكننا أن نتفلسف ونفكر كثيرًا في مجال أعضاء الجسد والتناسق الموجود بينها. كيف تتّحد وتتباعد حسب ناموس العقل والطبيعة؟ تمتزج وتفترق تَحتَوى وتُحتوى؟ وكذلك القول في الأصوات والأسماع، الصوت يخرج بواسطة الأوتار الصوتية ويصطدم بالهواء، أمّا السمع فيقبل حركات الهواء ويتصدى لها وكيف يلتقيان؟ وكذلك القول على أوسع من هذا في البصر الذي يتصل بطريقة لا يمكن التعبير عنها، هذا الاتّصال يجرى بإمرة الإرادة، وبما أنه يتحرك مع الإرادة يحدث مع البصر

ما يحدث مع العقل، أو بالأحرى للبصر الامتياز الذي للعقل. لأنه بالسرعة التي يمتزج بها العقل بالمعقولات كذلك البصر يمتزج بنفس السرعة مع المنظورات. وهكذا شأن الحواس الأخرى التي هي مواطن لما لا يفتش عنه العقل. وكذلك راحة النوم وما ينتابنا من الأحلامَ وعن الذاكرة والذكريات، وعن الغضب والخوف وعن كل شيء من هذا الإنسان، هذا العالم المُصغَّر.

٢٣- أتريد أن أعدّد لك الفروق التي بيننا وبين سائر الأحياء، وما يميّز الأحياء بعضها من بعض؟ وأبيّن لك طبيعتها وولادتها وإعالتها لصغارها، ومواطنها، وعاداتها، وكلّ حياتها! كيف يعيش بعضها وحيدًا وبعضها قطعانًا؟ بعضها يأكل العشب وبعضها يأكل اللحوم، بعضها مفترس وبعضها أليف، بعضها رفيق صديق وبعضها متوحش. بعضها شبه قريب من الفهم وبعضها على تلك الدرجة القصوى من البلادة، بعضها سريع العدو وبعضها بطئ، بعضها يرتحل وبعضها لا ينتقل من وطنه، تأمّل في أحجامها وجمالها وقبحها وتعايشها معًا، تأمّل في ضعف بعضها وقوة البعض الآخر، تأمّل في طبائعها وصفاتها المختلفة، بعضها يزحف زحفًا وبعضها ذو قوائم، بعضها برّي وبعضها بحريّ، بعضها مزّين وبعضها بلا زينة، بعضها تعيش أزواجًا وبعضها لا تتجانس، بعضها يلد كثيرًا والبعض الآخر قليلاً، والبعض ذو أعمار طويلة والبعض قصيرة الأعمار، وأنه ليأخذنا العجز والكلّل وإذا سردنا كل ذلك(١).

٢٤- فكر بالكائنات البحرية التي تنساب داخل المياه كأنها تطير

---

(١) كان هذا الاطناب والإغراق في التفاصيل ما يميّز الفن البلاغيّ الذي كان شائعًا في ذلك العهد.

وسط العنصر المائع السائل، وتتنفس هواءها الخاص، وإذا تنفست هواءنا نحن تعرضت للخطر وهلكت! فكر بعاداتها وغرائزها، وتجمعاتها، وولادتها، وأطوالها وجمالها، وحبها لمكان معين. فكّر بأسراب الطير وتنوعها وتشكلها وألوانها، بعضها بلا صوت وبعضها يغرّد! لمن تغني ومن أعطاها هذه الأناشيد؟ من أعطى تلك المخلوقات الأوتار الموسيقية لتغني ألحانها؟ إنها تندفع وتتحمس وتهتزج عندما تحركها شمس الظهيرة، تملأ الأحراج والأجواء بأناشيدها وترافق عابري السبيل عندما تبسط أجنحتها وسط النسائم وتوقع صفيرها نغمًا جميلاً! كيف يحب الطاووس المتكبر الجمال والمجد، يتيه بجماله إذا اقترب منه أحد، أو إذ اقتربت منه الانثى يتزّين ويقوّس ظهره، ويبسط جناحيه اللماعين كالذهب المليئين بالنجوم، وبمشية متباهية يعرض جماله على العشاق؟ الكتاب المقدس يعجب بفن الحياكة عند النساء ويقول من أعطى النسوة ثوب الحكمة والعلم المتنوع (أي٣٨ :٣٦س)؟ إنه صنع كائن عاقل، مع حكمة فائقة تصل حتى السماء.

٢٥- ألاّ تتعجب يا صاحبي من الحكمة الطبيعية للكائنات غير العاقلة؟ كيف تنمو الضفادع وتتوالد؟ وكيف تصبح الأشجار ميناء هادئًا ومقرًا لأعشاش الطيور ومناسبة لغذائها: ممن تعلّمت النّحل والعناكب محبة العمل المتقن؟ اعتبر بالنّحل كيف تشكل خلاياها وتجعلها متماسكة: غرف سداسية الزوايا تتكامل بالتبادل، ويقوم في الوسط جدار بحيث تُحاط الزوايا بخيوط مستقيمة وذلك في دهاليز مظلمة بلا هواء. كذلك العناكب تحيك بيوتها من عناصر رقيقة، وبطرق كثيرة تمد خيوطها وتستعملها لاصطياد الضعيف من الهوام والحشرات تبتلعه إلى أجوافها طعامًا شهيًا! أيّ

أقليدس[1] استطاع أن يقلدها، وهو الخبير بالخطوط؟ وكم اجتهد وعانى ليبرهن عنها؟ أيّ بلاميدس[2] علم الكراكي أن تتحرك بنظام مثالي، وبطيران متنوع؟ أيّ فيداس وزمكيس وبولغنتوس وأغلافوتتس[3] عرف أن يبحث ويصور صورًا فائقة الجمال؟ أيّ ذيداليس[4] هندس الرقص للعروس الجميلة؟ أين الدهاليز الكريتية بمداخلها ومخارجها الصعبة وتعرجاتها المتشابكة جدًا في أهراء النمل ومخازنها وما يروى عنها!؟

٢٦- إذا تأمّلت بالتالي وتفهمت ما قلته عن الحيوانات، واستنتجت من ذلك حكمة الله، ابحث بعد ذلك عن أنواع النبات، والناظر إليه يشعر بالفرح، ثمارها نافعة جدًا، وأوراقها مصنوعة بفن عجيب، تفحَّص أنواع الثمار وتنوعها وخصوصًا جمالها الفائق، تأمّل في الزهور وروائحها وعبيرها، انظُرْ إلى مباهج الألوان وخواصها وكذلك تنوع الصخور وزخرفها وروعتها، كلّ هذه وضعتها الطبيعة أمامك كمأدبة مشتركة بحيث تتعرّف إلى الله عن طريقها.

تعال لنقيس عرض الأرض وطولها! أليست الأرض الأم المشتركة للجميع، تعال لنفتش خلجان البحار المرتبطة بعضها ببعض وبالأرض- انظُرْ إلى جمال الغابات والأنهار والينابيع الغنية التي لا تنضب الصالح منها للشرب وغير الصالح تجرى فوق الأرض والتي تجرى في باطنها والمعدنية

---

(١) أقليدس: هو أبو علم الهندسة.

(٢) بلاميدس: هو أحد ملوك الإغريق الذين اشتركوا في حرب طروادة اشتهر بتنظيم الجيوش.

(٣) فيلداس: نحّات شهير، والباقون رسّامون من القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد.

(٤) ذيداليس: شخص أسطورى قيل إنه كان يبعث الحركة في التماثيل فتبدو كأنها حيّة.

التي تفيد صحة الإنسان وتشفي العلل والأسقام! قل لي كيف صارت كل هذه الأشياء ما هو هذا النسيج العظيم البسيط؟ كيف تأسست الأرض. أيّة عربة تحمل الشمس وتديرها؟ وعلى أيّة قاعدة تقوم؟ ومن وضع هذه القاعدة؟ المنطق يفترض أن الله هو الذي أسس وهو القاعدة. كيف تنبسط السهول وتشمخ الجبال وتتشكل السفوح أشكالاً مختلفة، وتعطي الخيرات للبشر؟ لا يجد المنطق أساسًا للأرض إلاّ إرادة الربّ. بعض المساحات من الأرض صارت عامرة والبعض الآخر ليس كذلك، سهول، وهضاب، وتلال، وجبال! ألاّ يوحي كل ذلك بعظمة الله!؟

٢٧- إذا كان لي أن أعجب بسعة البحر، فإني سأعجب بسكينته وانحصاره ضمن حدود! (**أي٣٨:٨-١١**) وإذا ما عجبت بسكينته عجبت بسعته وكلتاهما خليقة بالإعجاب. من الذي جمعه؟ ومن الذي حصره؟ كيف يمتلئ وكيف يتوقف كأنه خجل من الأرض؟ كيف يبقى كما هو وهو الذي يستوعب كل أنهار الأرض (**جا١:٧**)؟ لا أعرف ما أقول أمام سعة هذا المخلوق العظيم؟ كيف يمكن أن يحصر الرمل هذا الماء العظيم (**إر٥:٢٢**)؟ هل لعلماء الطبيعة ما يقولونه؟

مهما يقولوا فقولهم كنقل ماء البحر في الكأس، أليس أولى بنا أن نمتثل بالكتاب المقدس الذي عبر عن هذا بكلام قليل: **«رسم حدًّا على وجه المياه»** (**أي٢٦:١٠**). هذا هو الأمر الذي يكبل عنصر الماء. كيف ينقل القارب الخشبي الملاح من البحر إلى الأرض مدفوعًا بالرياح؟ ألاّ يعجب عقلك ويندهل عندما ترى هذه الأمور؟ كيف تتصل الأرض بالبحر تحقيقًا لحاجات الإنسان وهما من طبيعة مختلفة الواحد عن الآخر؟ ما هي المصادر

الأولى لهذه الينابيع؟ فتش أيها الإنسان علّك ترى وتجد هذه المصادر؟ من الذي شقق مجارى الأنهار في السهول والشعاب واندفقت بمياهها دون عائق؟ كيف يحدث أن يحقق العجب من ضدين: لا البحر يطوف ولا الأنهار تتوقف (جا١:٧)؟؟

ما هذا الغذاء الذي تحمله المياه وفيم تنوعه بحيث يروى بعض النبات عن طريق أوراقه، والبعض عن طريق جذوره، هذا وكم في الكلام على **«جنة الله»** (**حز٣١:٩**) **من بهجة!**

٢٨- هيّا بنا الآن، دعِ الأرض وما يتعلّق بها، ولنطر في الهواء بأجنحة النفس[١] لكي نتواصل. من هنا سأصعد بك إلى الأمور العلوية، إلى السماء نفسها وإلى ما فوق. إن هذا الحديث ليتردّد في التقدّم، ولكنه مع ذلك سيتقدّم قدْر المستطاع. من نشر الهواء، هذه الثروة الطائلة، التي لم تُضبط بحدود، ولم تُوزع تبعًا للأعمار، بل شأنها شأن المنّ في التوزيع، فينال كلّ منها كفاف حاجته، في مساواة الأنصبة؟ موطن الرّياح ومتنفس الأحياء، أو بالأحرى عامل اللُحمة بين النفس والجسد، فيه تتكوّن الأجساد، وبواسطته يجرى الكلام، وفيه ينتشر النور، كما يظهر به شكل الأشياء الخارجي كي ينتقل إلى الأبصار، ما الخزائن التي تُحجز فيها الرّياح (**مز١٣٤:٧**)؟ ما الخزائن التي يتجمع فيها الثلج (**أي٣٨:٢٢**)؟ **«من ولد نقط النّدى»** (**أي٣٨:٢٨**)؟ على حدّ تعبير الكتاب، و**«من بطن من خرج الجمد؟»** (**أي٣٨:٢٩**) من ذا الذي **«يحبس المياه في السحب»** (**أي٢٦:٨**)،

---

(١) هناك تقليد في الأفلاطونية الحديثة وفي المسيحيّة يتحدّث عن «طيران النفس».

والذي يغلق الغمام. يا للمعجزة ويفيضه تارة أخرى على وجه الأرض كلها، فيصبه في الوقت الملائم وبطريقة التوازن والتساوي، من غير أن يترك مجالاً لطغيان لا يصدّ! يكفي برهان الطوفان في أيام نوح (**تك٩: ١٢**)، إلاّ أنه لا يحبس الماء حبسًا كاملاً بحيث نعود إلى الاستنجاد بإيليا لإبعاد الجفاف (**١مل١٨: ٤٤**)؟ إذا **«حبس السماء»** (**١أي٧: ١٣**) كما يقول الكتاب. فمن يفتحها؟ وإذا **«فتح كوى السماء»** (**ملا٣: ١٠**) فمن ذا يحتويها؟ من ذا الذي يبعث المطر (**مت٥: ٤٥**) إذا هو لم يزن كل شيء بميزان ولم يعايره بمقدار؟ (**أي٢٨: ٢٥**). أنّى لك أن تناقشني في البروق والرعود أنت يا من دويه أرضى، ووميضه أوهي من أن يكون شرارة حقيقية؟ في أيّ أبخرة الأرض ترى مصادر الغيوم، أو لعلّها من بعض تكثّف الهواء، أو من ضغط الغيوم الرقيقة، أو من احتكاكها بعضها ببعض، فيكون لك من ضغطها البرق، ويكون لك من احتكاكها الرعد؟ أو أيّ هواء ضُغط ولم يجد له منفذًا، فكان من ضغطه البروق، ومن احتكاكه الرعود؟ وإن جُلت بفكرك في الهواء وفي كلّ ما يتعلّق بالهواء فتحسس معي السماء نفسها والأشياء السماوية. وليكن لنا في مسيرتنا الإيمان فوق العقل دليلاً، هذا إذا كنت قد أدركت ضعفك فيما هو أقرب منك، وعرفت أن من شأن العقل أن يعرف ما هو فوقه، حتى لا يكون بجملته أرضيًّا أو متعلّقًا بالأرض، فتكون والحالة هذه قد بلغْت من الجهل درجةً تجهل فيها أنك جاهل.

٢٩- من الذي صنع السموات وزرعها بالكواكب؟ هل يمكنك أن تجيبني؟ بل أجبني، رعاك الله، هل يمكنك أن تقولي ما هي السماء، وما هي النجوم، وأنت تجهل ما تحت قدميك، لا، بل لا تستطيع أن تقيس ذاتك؟

ومع هذا تهتم بأمور تفوق طبيعتك، وتفتح فمك أمام أشياء لا تُقاس؟ فلنسلم أنك عالم بدورات الفَلَك، وتعاقب الفصول، وشروقًا وغروبًا، ومنازل الأبراج والكواكب وكل ما يثيره العلم من إعجابك، هل تستطيع أن تدّعى أن هذا إدراك للكائنات، وإنما هو مجرد ملاحظة حركات تتضح لك بالمران الكثير؟ هكذا مثلاً، تعلّم الكثيرون أحوال القمر مبتدئين معرفتهم بالملاحظة. فإذا كنت يا هذا عالمًا كبيرًا واختصاصيًا بهذه الأمور، وتطلب بحق أن يعجب بك الناس. فقل لي من أين جاء هذا النظام وهذه الحركة؟ وكيف تُرسل الشمس أشعتها إلى كل الدنيا، وإلى كل عين، وكيف تخفي بأشعتها النجوم، وكيف تتوارى الكواكب بعضها وراء بعض؟ **«جعل للشمس مسكنًا فيها، وهي مثل العروس الخارج من حجلته يبتهج مثل الجبار»** (مز١٩: ٥)، وليس لي إلاّ أنا أُشيدَ بعظمتها مُستعينًا بما قاله غيري فيها: إن للشمس قوة يمكنها أن تسيطر بحرارتها على العالم من أقصاه إلى أقصاه **«من أقصى السماوات خروجها، ومدارها إلى أقاصيها، ولا شيء يختفي من حرِّها»** (مز١٩: ٦). ولا شيء يستطيع أن يتهرب من تأثيرها، وكل عين تمتلئ من نورها، وكل حس من حرارتها. تدفئ ولا تحرق، لأن حرارتها معتدلة كلها نظام وتناسق، موجودة في كل شيء وحاضرة لدى جميع الكائنات لا تُلِمّ بواحد منها دون الآخر.

٣٠- ما قولك في هذا- إذا كنت قد تنبّهت له- «أن الشمس في المحسوسات هي مثل الله في المعقولات» على حدّ قول أحد الفلاسفة[١]. فهي تنير العين، وهو ينير العقل، هذه أجمل ما في العالم المنظور، وذاك أجمل

---

(١) أفلاطون: الجمهورية ٦: ٨: ٥.

ما في العالم المعقول.

لكن من الذي هندسها في الأصل؟ من ذا الذي يحركها بدون توقف، ويجعلها تدور دورتها الدائمة، هي التي في طبيعتها ثابتة وغير متحركة، هي التي لا يعتريها كلّل، والتي تحمل معها الحياة، هي التي يتغنى بها الشعراء ويقولوا عنها: «إنها لا تكلّ ولا تملّ من الإنارة وتوزيع نعمة الدفء».

كيف يرجع إلى الشمس صنع الفصول وتقسيمها، تلك الفصول التي تُقبل وتمضي في نظام، وتكون كالجوقة في حركة الاتحاد والانفصال، وهي تتمازج شيئًا فشيئًا، تنساب كالنهار والليل بحيث لا تؤذينا المفاجأة ولا يصدمنا الانقلاب غير المألوف؟ ولكن فلتكن الشمس لنا ما تكون! وأنت هل عرفت طبيعة القمر، ومقياس ضوئه، ومراحل مسيرته؟ كيف تملك الشمس سلطان النهار، فيما يهيمن القمر على الليل؟ كيف يطلق القمر الوحوش فيما تنهض الشمس الإنسان إلى عمله (**مز١٠٣: ٢٣**)، هل وقفت على ما تُشدّ به عقد الثُّريّا، أو على تلك التي تُطوّق الجوزاء (**أي٣٨: ٣١**)، كمن يحصى عدد الكواكب ويدعو كلها بأسمائها (**مز١٤٦: ٤**)، وعرفت مجد كل واحد منها ونظام حركته لكي أثق فيك عندما تربُط مصيرنا بها وتسلّح الخليقة في وجه الخالق؟

٣١- ما قولك؟ هل نتوقّف عن الكلام هنا عند هذا الحدّ مقتصرين على حدود المادة والمنظورات؟ أم نتخطاها بعد أن رأينا خيمة موسى (**عب٩: ٢٤**) التي ترمز إلى العالم كله أي إلى **«لما يُرى وما لا يُرى»** (**كو١: ١٦**)، نتجاوز الحجاب الأول (**خر٢٦: ٣١**)، ونتخطى المحسوسات لنحدق بإيمان في المقدسات لكي ننظر الكائنات الروحية والتي فوق السماوية؟

إنها تُدعى «نارًا» أو «ريحًا» أو هذه وتلك فقد قيل في المزامير: **«الصانع ملائكته أرواحًا، وخدامه لهيب نار»** (مز١٠٣: ٤)، والصنع يعني الضبط والحفظ بالكلمة التي أوجدتهم، والأرواح السماوية تُسمى هكذا: لأنها أولاً طبائع عقلية، وثانيًا لنقاوتها. أنا أعرف أن الجوهر الأول كان يُسمى بهذه الأسماء: فلنحسب الأرواح بدون أجساد أو في حالة تقرب جدًا من حالة اللاّجسد. أترى كيف لا نتقدّم في فهمنا ونحن نعرف أن هناك ملائكة (رو٨: ٣٨) ورؤساء ملائكة وعروشًا وسلاطين وقوّات (كو١: ١٦)، ومراتب وصفوفًا وطغمات وقوّات روحية، ونعرف أنها طبائع نقية خالصة ثابتة في الخير، صعب ميلها نحو الشّر، أو الإتيان به وأنها تشكل دائمًا جوقة تحيط بالعلّة الأولى؟ كيف يمكن للإنسان أن يتخيل هذه الأرواح التي تستنير بالله باشعاعات نقية، وبدرجات متفاوتة وفقًا لطبائعها ورتبها؟ كيف تندمج بالخير، ويصير بعضهم نورًا ويستطيع أن ينير الآخرين ناشرين وموزعين نور النور الأول، وإذ كان هؤلاء الملائكة خدامًا للإرادة الإلهية، وأقوياء بالقوة الطبيعية التي لهم والمعطاة من الله، يطوفون على الكلّ وهم حاضرون في كلّ مكان ليقدّموا خدماتهم بكل رغبة تعينهم في ذلك خفتهم الطبيعية. البعض منتشر في أقسام مختلفة من المسكونة. والبعض خصصوا لأماكن معينة من كل العالم كما أراد ورتب لهم من عينهم. يقودون الكل إلى وحدة الاتفاق مع خالق الكون. يمجدون عظمة الله ويرون المجد الأبدى أبديًا، وليس ذلك لكى يكون ممجَّدًا- إذ لا يمكن أن يُضاف شيء إلى الملء- ويهب للآخرين الخير، بل كى نرى نحن مجده ونكرمه.

وأخيرًا إذا كنت قد وُفقت في محاضرتى وكنت خليقًا بتقدّيركم فذلك حسبى، وهو عطية من الثالوث الأقدس. أمَّا إذا كنت دون توقعكم فيكون الكلام قد حقق غلبة أيضًا، لأنه كان يحاول أن يبرهن أن العقل لا يستطيع أن يدرك الطبيعة الملائكية، فكم بالأحرى طبيعة الله التي تفوق كل شيء! له المجد والإكرام إلى أبد الدهور آمين.

✠ ✠ ✠ ✠



والآن، دعونا نتكلّم عن اللاّهُوت، بادئين عظتنا بموضوع، الآب والابن والروح القدس، كيما يؤيّدنا الآب، ويُعِيننا الابن، ويُلهمنا الروح القدس- بل قلْ حتى ينيرنا الضياء النابع من الإله الواحد، المتميّز في الوحدة، والوحيد في التميُّز.

إني توّاق لصعود الجبل (خر١٩: ٢٠،٢٤: ٩-١٥)- أو بتعبير أدق، الصعود بلهفة مشوبة بالقلق من أجل ضعفي- كي أدخل إلى الغمام (خر٢٤: ١٨) وأكون مع الله (إذ أن هذا هو أمر الله) (انظُرْ خر٢٤: ١٢).

هل هناك من هرون؟ كي يتقدّم ويصعد معي (خر١٩: ٢٤)، ويقف إلى جانبي، ويقبل أن ينتظر حتى ولو بقى خارج الغمامة. هل من ناداب أو أبيهو أو أحد الشيوخ؟ فليصعد ولْيقف بعيدًا وفقًا لأهليَّة نقاوته (خر٢٤: ١، ٢-٩، ١٠-١٤، انظُرْ لا١٠: ١-٣)!

القديس غُريْغوريوس النَّزينزيّ